جهود الأزهر في مواجهة التغريب

الشيخ محمد الخضر حسين الجزائري أنموذجا

الدكتور نجيب بن خيرة

جامعة الأميرعبد القادر -قسنطينة

الأزهر . وشهادة التاريخ:

الأزهر . كلمة تسمعها الآذان، فتلتفت إلى حقبة طويلة من الزمان، ظل الأزهر خلالها حصن الدين الحصين، وركن العلم المتين، وملاذ اللغة والأدب، والثقافة جميعا.

عشرة قرون وتزيد، كان الأزهر خلالها المعقل الوحيد الذي ثبت لحملات الغير، فانتهت إليه أمانة الرسول، واستقرت به وديعة السلف، واستعصمت فيه لغة القرآن، واستأمنت إليه آداب العرب، فأرضه حرم لا تنتهك، وأهله حمى لا يستباح، وأمره قدر لا يُرد. وكان لعلمائه مكانة في القلوب ومهابة في النفوس، لأنهم دعاة الله وورّاث النبي وهداة المحجة، ينطق بألسنتهم الكتاب، وتتمثل في أفعالهم السنة، فمحبتهم عقيدة وطاعتهم فريضة وإشارتهم نافذة [1].

كان الأزهر ولا يزال سنة واضحة لهدي الدين، استقام الناس به هذه القرون على عمود واحد، ولبث في هذه المدة على طولها شامخا كالبنيان الراسخ، لم تطامن عظمته الأحداث والمحن، ولم تنهنه من قوته الخطوب والفتن.

لقد مضى الأزهر على وجه التاريخ قويا جبارا، يحطم العقبات في سبيله، ويحمل الرسالة غير حافل بالسدود، فهذا هو دين الله نشره علماؤه، ونصره أبناؤه،

---

1) ـ أحمد حسن الزيات. الأزهر بين الماضي والحاضر. مـن وحـي الرسـالة، ط10، القاهرة : دار الثقافة، 1985، 1/ 203

وانبثق فيهم نوره، وشع منهم ضياؤه، لم يقصروا الدعوة على حلق الدروس في معهدهم، ولم يقفوها على مصر مهدهم، بل نفر من كل فرقة منهم طائفة غشيت أرجاء العالم كله. . .

إن العالم الإسلامي كله مدين للأزهر فكريا وعقائديا وسياسيا. فلقد تعرضت بلاد المسلمين لثورات جامحة، وغزو عسكري وفكري، وتعرضت الثقافة الإسلامية في بغداد إلى نكسات على يد التتار الغزاة، وتعرضت المساجد في إسبانيا إلى العدوان على حرماتها عندما انحسر الحكم الإسلامي عنها، وتعرض المسجد الأقصى والقدس لهجوم الصليبيين، لكن الأزهر ظل شامخا يقاوم التيارات المنحرفة، فيتصدى لها ويجنح بالثقافة الإسلامية إلى بر الأمان، يغالب ظلال الجهل المطبق الذي ران على العالم الإسلامي ردحا طويلا. . فكان منارة أمل تشع في ظلام العهود السوداء التي مرت بالأمة الإسلامية، فضوء المعرفة فيه كان ضوءا فكريا يشع إلى كل العالم الإسلامي، وكان رحابه مفتوحا بلا قيود ولا شروط إلى كل وافد، ينهل منه عصيرا فكريا إسلاميا خالصا.

حمل الأزهر رسالة العلم في الدنيا ـ فاضطلع بها أشد ما يكون قوة وفتاء، فكم استفاض على العالم الإسلامي بكتبه ومبعوثيه من حاملي علمه ورسل إلهامه، وما كان علم الأزهر إلا نفوذا إلى أغوار البحث، وغوصا وراء الحقائق، وتجلية للأسرار والدقائق.

ومن ثم فإن علم الأزهر صقل الأذهان، وربى الملكات، وقوّم الألسن، وأخرج الحقائق كالعرائس المجلوة، والدر المنضد.

وكان الأزهر ولا يزال كعبة يحج إليها الناس من أقطار الأرض، ينهلون من ورده، ويقتبسون من نوره.

لقد خرّج الأزهر من مدرسته: الصحفي البارع، والخطيب الساحر، والسياسي الداهية، والمصلح الخطير، ودرج على ربوعه قواد مصر في نهضتها وثورتها، وبناة مجدها، وحماة تراثها، كل نابه اعترف من فضله، وارتوى من بحره، واغتذى بثقافته، فإما عكف على طريقه حتى أتمّه، وإما وجهته هذه التنشئة، ومكنته تلك البداية من النهوض بما يحفل به من رسالة، وهو أبلغ ما يكون قوة، وأتمّ ما يكون أهبة. .

وذلك الفضل العظيم، وهذه المكانة السامية، هي التي هيأت لرجال الأزهر من مطالع عهده إلى اليوم: جلالة تغشى العيون، وقدسا يملأ الصدور، وسعت بهم إلى مكان القيادة والتوجيه، ومنحتهم من بلاغ القول، وزعامة القوم، وصفاء القريحة، ما ضمن لهم الإمامة، وفرض لهم الصدر، ومكنهم من القيادة والتوجيه، وجعل لهم من مهابة الرأي أن يفصلوا في جلائل الأمور، وعظائم الشئون، وأن يمتدوا بنفوذهم أحيانا إلى مصاير العروش والسلاطين [1].

ذلكم هو الأزهر يجر وراءه أمجاد ألف سنة ؟، ظل خلالها وحده عرين الضاد، وتاج الكنانة، ودرع الشرق كله.

الأزهر. تاريخ وتطور: إذا كان جامع عمرو بن العاص أول جامع أسس بالفسطاط، فإن الجامع الأزهر هو أول جامع أسس في القاهرة، ولكل من الإثنين زعامته ورسالته العلمية. غير أن الأزهر استمر إلى الآن، يؤدي رسالته العلمية والثقافية والحضارية ويخدم الدين الإسلامي منذ ألف عام ونيف وثلاثين سنة، على

---

1) ـ محمد كامل الفقي. **الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة**. سلسلة البحوث الإسلامية. س13ـ الكتاب الرابع، 1982م، منشورات الكتب العصرية، ص21-24، أحمد محمد عوف. **الأزهر في ألف عام**، سلسلة البحوث الإسلامية س13-الكتاب الثاني، منشورات المكتبة العصرية، 1982م، ص15-16.

حين تخرب جامع عمرو بفعل الزلازل والعوامل الأخرى وهجرة الطلاب والشيوخ منذ نهاية القرن السابع الهجري

ومؤسسه هو جوهر الصقلي قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي سنتي 359-361هـ، وقد اختلف المؤرخون في أصل تسميته والراجح أن الفاطميين أسموه بالأزهر تيمنا بفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، لإشادة بذكرها، وتخليدا لذكراها، حيث يدين هؤلاء بالمذهب الشيعي الإسماعيلي [(1)].

بدأ الأزهر يكتسب الطابع العلمى بعد ثلاثة أعوام ونصف عام من إنشائه ففى رمضان 265 هـ أكتوبر 975 م، وفي عهد الخليفة المعز لدين الله جلس قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان القيروانى بالجامع الأزهر وقرأ كتابا يعد مصدرا من مصادر الفقه الشيعى هو كتاب (الاقتصار) الذى وضعه والده أبو حنيفة النعمان، وقد حضر حلقات الدرس هذه جمع عظيم من الدارسين والجمهور[(2)]،

وبقيام الدولة الأيوبية في مصر (567هـ) تحركت بكل الجهد لإزاحة المذهب الشيعى وطمس رسوم الدولة الفاطمية، وإحلال مذهب أهل السنة في جامع الأزهر، وهذا هو صلاح الدين الأيوبي يهم بهدم الجامع الأزهر ، لكن العلماء عقدوا مجلسا على الفور وأقنعوه بعدم هدمه، والاكتفاء بإغلاقه وتوقيف الدراسة فيه لفترة من الزمن [(3)]، فأهمل الأزهر مركز الدعوة الشيعية ومنعت الخطبة فيه حوالي المائة سنة المذكورة، وقطعت عن الأزهر كثيرا مما أوقف عليه من أوقاف.

---

1) ـ مجاهد توفيق الجندي. نظام الدراسة بالجامع الأزهر في عصر السيوطي. ط1، القاهرة : 2000م ص أ.

2) ـ المقريزي. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. تحقيق. جمال الدين الشيال، القاهرة: 1967م، ص227.

3) ـ ستانلي لينبول. سيرة القاهرة. ترجمة. حسن إبراهيم حسن، وعلي إبراهيم حسن، وإدوارد حليم، القاهرة : 1950م، ص132.

وبدأ صلاح الدين يستعيض عن الأزهر بإنشاء المدارس التي تزاحم الأزهر كمؤسسة تعليمية وتدعو للمذهب السني، كالمدرسة للشافعية، والمدرسة القمحية، والمدرسة السيوفية. . . ثم أخذت المدارس تكثر بعد ذلك وتزاحم الأزهر، وتجذب إليها الطلاب حتى بلغ عددها ـ كما يقول المقريزي ـ خمس وخمسون مدرسة[1].

وفي بداية العصر المملوكي اعتنى السلاطين بالأزهر بعد الإهمال الذي لحقه في العصر الأيوبي، وكان الأمير "عز الدين أيدمر" أول من اهتم بالأزهر، فأصلح ما اختل من مبانيه، فقام بتجديد الأجزاء التي تصدعت منه، ورد ما اغتصبه الأهالي من ساحته، وجمع التبرعات التي تعينه على تجديده، فعاد للأزهر رونقه وبهاؤه ودبت فيه الحياة بعد انقطاع، واحتفل الناس بإقامة صلاة الجمعة فيه في يوم (18 من ربيع الأول سنة 665 هـ = 19 من نوفمبر 1266م)، وأقام لذلك حفلة حضرها رجال الدولة وأعيان الأمة [2].

وهذه الفترة جعلت من الأزهر جامعة إسلامية عالمية تنضح بالمعارف على كل الأقطار، وتبعث بالعلماء إلى سائر الأمصار، وآية ذلك كوكبة العلماء الأفذاذ الذين تخرجوا في الأزهر ونذكر منهم:

الإمام البوصيري والمقريزي والضويري والديري والسيوطي وابن إياس والعسقلاني وغيرهم من كبار علماء الإسلام وشوامخ الثقافة الإسلامية.

وفي عهد الخلافة العثمانية أنشئ منصب (شيخ الأزهر) في أواخر القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) وحدث ركود نسبى إثر قيام السلطان سليم الأول العثمانى بترحيل عدد من علماء الأزهر إلى الأستانة -عاصمة الدولة

---

1) ـ الخطط. 2/ 272.

2) أنظر : محمد الخضر حسين. مكانة الأزهر وأثره في حفظ الدين ورقي الشرق. مجلة نور الإسلام، العدد10/ شوال 1349هـ / المجلد الأول، ص724.

العثمانية- وكانوا طائفة صالحة من نواب القضاة على المذاهب السنية الأربعة، فضلا عن ترحيل عدد كبير من الصناع المهرة والعمال الفنيين.

وقد عانى الأزهر في فترة طويلة من هذا العهد التدهور الفكري، والتخلف المعرفي، وذلك بإيعاز من بعض الحكام العثمانيين والولاة الذين كانوا يهدفون إلى عزل مصر عن التطور الحضاري العالمي لما لمصر من دور رائد في النهضة العربية الإسلامية .

ومن أشهر الذين برزوا من علماء الأزهر: نور الدين علي البحيري، وشهاب الدين السنباطي، وعبد الرحمن المناوي، والإمام شمس الدين الصفدي المقدسي الشافعي، والإمام إبراهيم البرماوي (أحد شيوخ الأزهر)[1]، والشيخ حسن الجبرتي الجد الثاني للمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي[2]، ومحمد شنن المالكي [3].

الأزهر.. قلعة الصمود وقاهر المستعمرين :

للأزهر دوره رائد في مقاومة المعتدين والمحتلين الذين حاولوا اغتصاب أراضى مصر ونستعرض موقف المقاومة البطولية للأزهر ورجاله منذ حملة نابليون بونابرت على مصر ومحاولته احتلال مصر وقبل ذلك.

قاد علماء الأزهر وشيوخه ثورة عارمة ضد الأيوبيين وضد المماليك وضد العثمانيين. . . وقاد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي المقاومة ضد نابليون بونابرت حيث ألف الأزهر لجنة لتنظيم الثورة ضد الفرنسيين وقامت هذه الثورة بالقاهرة فى اكتوبر عام1798 م، واحتشدت الجموع في الأزهر ينادون بالجهاد ضد الفرنسيين، وهاجموا الفرنسيين ومعسكراتهم وقتلوا الجنرال (ديبوى) حاكم القاهرة فأخذ

---

1) ـ الجبرتي. عجائب الآثار في التراجم والأخبار. بيروت : دار الجيل، (د، ت)ـ 1/ 119

2) ـ المصدر نفسه. 1/ 118.

3) ـ المصدر نفسه. 1/ 128.

الفرنسيون يطلقون النار على الثوار فى الشوارع وتدفقت الجماهير إلى الأزهر واحتشد فيه مايزيد على ألف مواطن، وأقاموا المتاريس فى الطرق والأزقة، وأمر نابليون بضرب الأزهر والقاهرة من على المقطم وانهالت آلاف القنابل على الأزهر والقاهرة، ودخل جنود فرنسا الجامع الأزهر وعسكروا فيه بخيلهم ومنعوا الطلاب والعلماء من دخوله. . وقاد الأزهر حركات عديدة ضد الحملة الفرنسية كما قتل الجنرال (كليبر) قائد الحملة الفرنسية بعد نابليون على يد أزهري أي طالب بالأزهر عام 1800 م وأعدم الأزهري وهو بطل يسمى (سليمان الحلبي).

فلقد قاد الأزهر معركة الجهاد ضد الفرنسيين فى ثورة القاهرة الأولى بقيادة الشيخ السادات، وثورة القاهرة الثانية برئاسة عمر مكرم. . وبعد خروج الفرنسيين قاد الأزهر وعلماؤه رغبة الشعب في حكم أنفسهم بأنفسهم، واختار علماء الأزهر محمد علي واليا على مصر وطالبوا بخلع خورشيد باشا الوالي العثماني فاستجاب لهم السلطان العثماني، ووقفوا بعد ذلك ضد محمد على عندما اغتصب الأوقاف وأرهق الشعب بالضرائب. . ووقف الأزهر ضد الحملة الانجليزية على مصر عام 1807 وأفتى علماؤه بوجوب الجهاد. . . وقاد الأزهر وعلماء الأزهر الثورة العرابية حتى أن عرابي زعيم الثورة أزهري، وأغلب رجال الثورة العرابية من الأزهر مثل عبد الله النديم والشيخ محمد عبده وسبقهم رفاعة رافع الطهطاوي حتى أن علماء الأزهر عزلوا الخديوي توفيق الذي شردهم ونفاهم وصادر أملاكهم عقب فشل الثورة العرابية. . . ووقف الأزهر وعلماؤه وقفة شجاعة ضد الانجليز وساندوا الحركة الوطنية المصرية وثورة 1919م وقاد الأزهر حركة الشعب بقيادة علماء الأزهر مثل الشيخ القاياتى والشيخ أبو العيون والشيخ الزنكلونى والشيخ عبد الباقي سرور، كما أن قائد الثورة سعد زغلول من رجال الأزهر، وقامت النساء من الأزهر بمسيرتهن وقاوموا الانجليز من الأزهر أيضا. . .

الأزهر في مواجهة التغريب:التغريب هو الخاصية الفكرية للحضارة الغربية المتميزة بطابعها المادي، وغير المتقيدة " بالنظرة المؤمنة " للكون، والجانحة إلى فصل الدنيا عن الدين، وتحرير الدولة من إطار الدين، وتنحية النصوص والمأثورات الدينية من طريق العقل في كافة الميادين [1].

والتغريب بهذا هو محاولة لإخراج الأمه عن قيمها، أو محاولة للخروج على القيم، وهدمها والدعوة للحداثة بالمفهوم الذي يعني الانسلاخ عن كل منظمات القيم ومرجعيات الدين وتقاليد الأمة، واستدبار القيم العليا الحاكمة للحضارة الإسلامية، والقيم الحاكمة في كل حضارة هي الأساس الذي يميز الحضارة ويحدد خصوصيتها، وهي كذلك الأساس الذي تقوم عليه الحضارة ويحقق تماسكها وترابطها، وبه يتحقق الاجتماع الإنساني، لشعب هذه الحضارة.

ولقد كان التغريب الثقافي رديف الاستعمار الغزو العسكري وجزء أساسي من رسالته، وبه يفرض فلسفته ومذاهبه الفكرية بما فيها من تعارض واضطراب وزيف، ويرمي الثقافة الإسلامية في الصميم فتهتز وتترنح أمام الضربات المتلاحقة فلا تتماسك أمامها، مما يجعل الريب يتسلل إلى النفوس، والشك يعبث بالعقائد، والحيرة تذهب بأولي الألباب. فتتحول الأمة بما تحمل من ميراث ضخم، وفكر مستنير، وعطاء متجدد إلى هامش للحضارة الأوروبية المنتصرة !.

ومنذ البدء كان الأعداء على وعي تام بأن "العربية " و"الإسلام" هما حصن هذه الأمة عبر تاريخها الطويل، وخلال كل الصراعات التي خاضتها في ذلك التاريخ. . ومن هنا كانت سهام التغريب موجهة بدقة إلى الأزهر حصن العربية والإسلام. فأصابته وهو في لحظة ضعف، فخاض معركته هذه وهو أشبه ما يكون بمن نزع سلاحه !.

---

1) ـ محمد عمارة. الإستقلال الحضاري. ط1، القاهرة : نهضة مصر، 2007م، ص204.

وقد انعكس الفقر المادي والفكري الذي ميّز الحقبة العثمانية على الأزهر، فزادت غربته عن العلوم التي أبدعها السلف، والتي تأسست عليها صفحة ازدهر حضارتنا، ووقف التدريس فيه عند الكتب التي ألفها علماء العصر المملوكي العثماني، وهو العصر الذي توقف فيه الإبداع وأغلق باب الاجتهاد. . بل واقتصر التدريس غالبا على علوم الوسائل والأدوات. ز حتى لقد غدت علوم وفنون مثل: المنطق والفلسفة والتاريخ والجغرافيا، غريبة ن يرتاب فيها الكثير من الشيوخ، ويخشون ضررها على الإسلام ![1].

والأزهر بهذه المثابة لم يقف مكتوف الأيدي، خائر العزم، يتفرج على الأمة وهي تدك حصونها المادية والفكرية بل ثار الأزهر لينازل الغزاة الهاجمين، فيرد كيدهم، ويجلي مؤامراتهم، ويفضح أساليبهم، وقد تم له ذلك بما استخدم من أسلحة المقاومة المختلفة منها السلبي ومنها الإيجابي على حد سواء، ويمكن أن نحصرها في نوعين:

1 ـ **المقاومة بالمحافظة:** في صراع الأمة ضد التغريب الوافد بفكرية لا تعترف إلا بالعقل ـ بمفهومه اليوناني ـ اعتصم الأزهر بعقلية النقل والنصوص والمأثورات.

وكانت الحضارة الغازية قد أدهشت الصفوة وبهرت النخبة، ورجحت كفتها كل الرجحان عندما عقدت المقارنة بينها وبين الفكرية التي سادت في العصر المملوكي العثماني. ورفضا لهذه الحضارة الغازية استمسك الأزهر كمؤسسة والجمهور الأعظم من علمائه بهذه الفكرية التي سادت في تلك القرون !، لقد

---

1) ـ أنظر : محمد عمارة. الاستقلال الحضاري. مرجع سابق، ص205-211.

اعتصموا بالقديم على علاته، خوفا من الجديد الغريب، وانطووا على الذات، بما حملت من أمراض حذرا من أن يقتلعها الجديد الوافد [1]..

. 2 ـ **المقاومة بالتجديد:** لكن بعضا من نابهي علماء الأزهر رفضوا موقف الجمهور، ورأوا المخاطر الكامنة في مقاومة التغريب بالمحافظة والجمود، فشرعوا ينبهون قومهم إلى ضرورة "التجديد" باعتباره الطريق الأكثر أمنا والسبيل الأفعل في الحفاظ على ذاتية الأمة الحضارية والنجاة بمستقبلها من الذوبان في حضارة الغزاة. لقد أبصروا أن المحافظة والجمود والانكفاء على فكرية الحقبة المملوكية العثمانية قد تضمن نجاة المحافظين من الذوبان والتغريب. لكنها لن تضمن نجاة الأمة من هذا الخطر الداهم، لأن مذهب المحافظة والجمود لا يقدم "البديل" الذي ينافس ما يقدمه المتغربون، بل إن ما لدى المحافظين لا يعدو فكرية عفا عليها الدهر، ولا علاقة لها بجوهر فكر الإسلام وإبداع المسلمين في عصر الازدهار الحضاري.

وبذلك يتقدم الأزهر ـ باسم الإسلام والمسلمين ـ بالبديل المنافس عن جدارة وباقتدار لفكرية التغريب التي تبشر بحضارة الغرب سبيلا أوحد للنهضة والتقدم[2].

ويمكن أن نذكر من بين أعلام التيار التجديدي في الأزهر:

الشيخ حسن العطار(1180-1250هـ / 1766-1835م): الذي تولى مشيخة الأزهر عام (1245هـ / 1830م)، وتوفي عام (1250هت / 1834م)، وقد اعتبر في عصره إمام المثقفين المصريين، درس الطبيعة والهندسة والمنطق والفلك وعلوم الحيل، والأدب والرياضة، وكان من هواة الترحال والسياحة، فزار دمشق وألبانيا وعدة

---

1) ـ حدث هذا في الجزائر أيام الاستعمار الفرنسي عندما كان الجزائريون ينظرون بعين الريب للمدارس التي أنشأها المستعمر، ويرون فيها مدارس تسلخهم عن هويتهم وترمي بهم في أتون الثقافة الاستعمارية الغازية ففضلوا مقاطعتها وظلوا على أميتهم عربا مسلمين حتى قيض الله لهم مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

2) ـ محمد عمارة. **الاستقلال الحضاري**. مرجع سابق، ص213-217.

بلدان، وكان يهوى الموسيقى فدرسها وأجاد فنونها. وعندما شاهد الحملة الفرنسية أن بلادنا لا بد وأن تتغير أحوالها ن ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة (الفرنساوية) من المعارف والعلوم، وكثرة كتبهم وتحريرها، وتقربها لطرق الاستفادة.

وقد انعكس هذا النهج التجديدي للشيخ العطار في التآليف التي تركها في الهندسة والطب والتشريح والفلك نحوا من ثلاثة عشر كتابا [1].

ونجد رفاعة الطهطاوي (1216-1290هـ / 1801-1873م)تلميذ الشيخ العطار، يدعو إلى تجديد الأزهر ولا يتم ذلك لديه بأن تفرضه السلطة الحاكمة على رجال الأزهر، بل ينبغي أن ينبع إصلاح الأزهر من داخله، ولذا فينبغي على العاملين في الأزهر أن يطوروا نظامه مستفيدين من تدعيم الحكومة لذلك [2].

وقد عاين الطهطاوي الحضارة الأوروبية من جانبيها المادي والمعنوي كما يقولون ن فعاش في نظمها يوم كان في باريس، وثقف فلسفتها وهو طالب في معاهدها وتلميذ على أساتذتها، ثم إنه آخر الأمر شيخ من شيوخ الأزهر وفقيه من فقهائه. . .

ولا يعني أن الطهطاوي كان من دعاة التغريب، بل أخذ من الثقافة الغربية أخذ العارف بفلسفة حضارته، والمستمسك بأصولها فكان أول ما قاله: "ومن المعلوم أني لا أستحسن إلا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم" [3].

---

1) ـ أحمد محمد عوف. الأزهر في ألف عام. مرجع سابق، ص119-120.

2) ـ أحمد محمد جاد عبد الرزاق. فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي. ط1، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 1995م، ج1/ ص99-100.

3) ـ حلمي مرزوق. الإسلام والفكر المعاصر. بيروت : دار لنهضة العربية، 1982م ن ص35-37.

أما الإمام محمد عبده (1265-1323م/ 1849-1905م) فقد كان من أبرز أعلام التجديد بل من أعظم من تكونت للتجديد من حوله مدرسة في تاريخنا الحديث. . وقد ارتكز في برنامجه التجديدي على أمرين أساسيين: ـ أحدهما: ضرورة العودة إلى الأصول الإسلامية الأولى المبرأة من أدران التقليد والبدع، تلك البدع التي قعدت بالإسلام وأهله عن ملاحقة ركب التقدم الأوروبي، إذ أدرك محمد عبده باعتباره مسلما أن التجديد والإصلاح الحقيقي لأمور المسلمين، ليس يمكن أن يتم إلا في إطار الدين الإسلامي، الذي هو دين سيادة وسلطان، جمع بين سعادة الدنيا والآخرة، بالإضافة إلى أنه دين مدني اجتماعي وروحاني في الوقت نفسه، فهو دين ودولة، ومنهج شامل للحياة. ـ ثانيهما: الدعوة إلى الأخذ بالعلوم التجريبية الغربية التي أسهمت إسهاما فعالا في تطور الحضارة الأوروبية وسيادتها ويرتبط هذا بسابقه ارتباطا وثيقا، إذ العودة إلى الأصول الإسلامية تؤدي إلى أن يأخذ المسلمون بالعلوم الكونية والتجريبية ن فكلما نما علم الدين الحق وازدهر ازدهرت معه العلوم الكونية[1].

ولقد دعا محمد عبده إلى أن تكون مرجعيتنا ونحن نقبس من الغرب مدنيته هي مرعية الدين إذ لا سبيل إلى النهضة الحقيقية إلا به وفي هذا يقول: " فكل من طلب الإصلاح من غير طريق الدين، فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت ويضيع تعبه ويخفق سعيه "[2].

---

1) ـ أحمد عبد الرزاق. فلسفة المشروع الحضاري.. مرجع سابق، ج1/ ص381-382.

2) ـ الأعمال الكاملة لمحمد عبده. دراسة وتحقيق محمد عمارة، ط1، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1972م، ج3/ ص109.

الإمام محمد الخضر حسين الجزائري أنموذجا:

1 ـ الخضر حسين. . في سطور:

ـ أصله من طولقة بالصحراء الجزائرية، ولا تزال أسرته بطولقة وهي أسرة "عثماني" القائمين على الزاوية العثمانية العامرة، وبلدة برج بن عزوز، حيث أحفاد أخواله هناك ومنهم العلامة المكي بن عزوز رحمه الله.

ـ ولد في مدينة نفطة بتونس(1293هـ=1876م).

ـ تلقّى تعليمه في مسقط رأسه، ثم انتقل إلى تونس العاصمة مع أسرته، والتحق بجامع الزيتونة.

ـ بعد تخرُّجه في جامع الزيتونة عمل بالخطابة والتدريس والقضاء.

ـ أسَّس في تونس مجلة لخدمة الفكر الإسلامي بعنوان "السعادة العظمى".

ـ في سنة 1329هـ / 1911م وجهت إليه التهمة ببث روح العداء للغرب ولاسيما سلطة الحماية الفرنسية، فسافر إلى الأستانة متذرعا بزيارة خاله السيد محمد المكي بن عزوز، ولما ظن أن الزوبعة هدأت عاد إلى تونس بطريق نابولي، ولما استقر به المقام رأى أنه لا يطيق البقاء في ذلك الجو الخانق، فأزمع الهجرة منه نهائيا، ووقع اختياره على دمشق ليتخذها وطنا ثانيا له.

ـ تعرض في بلاد الشام أيضا للاضطهاد والسجن بسبب اتهام جمال باشا له بالتآمر على السلطة .

ـ نزل محمد الخضر الحسين القاهرة سنة (1339هـ= 1920م)، واشتغل بالبحث وكتابة المقالات، وقد ساقت له الأقدار الأستاذ الأديب أحمد تيمور باشا الذي قدّر موهبته، وعرف قدره، فساعده على الاستقرار في القاهرة باختياره مصححا بدار الكتب المصرية، فسمحت له هذه الوظيفة أن يتصل بأعلام النهضة الإسلامية في مصر وتوثقت علاقته بهم، وتقدَّم لامتحان شهادة العالمية بالأزهر، وعقدت له لجنة

الامتحان برئاسة العلامة عبد المجيد اللبان مع نخبة من علماء الأزهر الأفذاذ، وأبدى الطالب الشيخ من رسوخ القدم ما أدهش الممتحنين، وكانت اللجنة كلما تعمَّقت في الأسئلة وجدت من الطالب عمقًا في الإجابة وغزارة في العلم، وقوة في الحجة، فمنحته اللجنة شهادة العالمية، وبلغ من إعجاب رئيس اللجنة بالطالب العالم أن قال: "هذا بحْر لا ساحل له، فكيف نقف معه في حِجاج".

إلغاء الخلافة الإسلامية.. أول الوهن السياسي:

في شهر مارس 1924م، وقع إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيا من طرف الجمعية الوطنية التركية الكبرى مدعية أن الشعب التركي قد فوض الجمعية التي تمثله تمثيلا حقيقيا جميع حقوق سيادته وحاكميته. . وقد أثار هذا القرار ضجة كبيرة في العالم الإسلامي، فكتبت المقالات المعارضة، وعقدت المؤتمرات للتشهير بهذا الإلغاء الذي يتعارض مع مذهب أهل السنة الذي يشير إلى أن الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة دنيا الناس به. .

وقد كان الملك فؤاد ملك مصر من أكبر المعارضين والحاثين لرجال الدين وشيوخ جامع الأزهر على التنديد بهذا القرار وبأصحابه، ذلك لأنه كان يسعى لتولي خلافة المسلمين وزعامة العالم الإسلامي. وقام أنصار الملك فؤاد وأتباعه بترويج هذه الفكرة والدفاع عنها باستعمال وسائل عديدة.

وفي خضم هذا الاختلاف الشديد القائم بين المدافعين عن هذه الخطة الإسلامية وبين المناوئين لها أصدر الشيخ علي عبد الرازق أحد علماء الأزهر كتابه "الإسلام وأصول الحكم" في غرة أفريل 1925م وأكد فيه أن الخلافة ليست ضرورية لقيام حكومات إسلامية حديثة، وأنها ليست من الدين في شيء. .

وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبرى في أوساط علماء الأزهر وعدُّوه خروجا على إجماع الأمة، وما ألفته وتلقته بالقبول عبر تاريخها السياسي الطويل. . واغتنم

الشيخ الخضر حسين هذه المناسبة للمساهمة في خوض هذه المعركة الدينية والسياسية فألف كتابا رد فيه على الشيخ عبد الرازق سماه "نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم" ورتبه نفس الترتيب المتبع في الأصل المردود عليه [1].

واعتبر الشيخ الخضر حسين أن كتاب علي عبد الرازق مظهر من مظاهر التغريب التي هبت على المجتمعات الإسلامية تريد النيل من خلافتها، وتأجيج خلافاتها، وتشتيت صفوفها بعدما كانت تحت مظلة خلافة إسلامية جامعة. .

ولكن الشيخ استطاع أن يحقق مأربا آخر بتأليفه لهذا الكتاب: وهو تلبية رغبة القصر الملكي واستجابته لطلب أنصاره ومؤيديه مما ناله به من خطوة ومكانة عند الملك، ويؤكد ذلك: إهداء الكتاب إلى خزانة حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر المعظم" يقول في خاتمته: " تلك المزية (رعاية الدين) التي أصبح بها صاحب الجلالة واسطة عقد ملوك الأمم الشرقية قد أخذت في نفسي مأخذ الإكبار والإجلال ودعتني إلى أن أقدم إلى خزانته الملكية مؤلفا قمت فيه ببعض حقوق إسلامية علمية وهو "نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم" ورجائي أن يتفضل عليه بالقبول والله يحرس ملكه المجيد ويثبت دولته على دعائم العز والتأييد" ويختم هذا الإهداء بالعبادة التالية "المخلص في الطاعة محمد الخضر حسين"[2]. وقد تمكن الشيخ من الحصول على الجنسية المصرية مما سمح له أن يندمج كليا في المجتمع المصري، ويحقق ما كان يصبو إليه.

1) ـ أنظر. محمد مواعدة. الشيخ محمد الخضر حسين. حياته وآثاره. دمشق : المكتبة الحسينية، ص76-82.

2) محمد مواعدة. الشيخ الخضر حسين.. ، مرجع سابق، ص84.

الخضر حسين.. ينقض طه حسين !

لا شك أن حياة الشيخ الخضر في بلاد " الجريد" جعلته يعيش كالنخلة أصلها ثابت وفرعها نابت، لا تهزها أعاصير التغريب التي هبت على المؤسسات العلمية التي رعى المستعمر غراسها، واستطاع أن يُلمع بعض رجالاتها ومن بينهم الأديب طه حسين. الذي ألف سنة 1926م كتابا سماه " في الشعر الجاهلي " اعتبر فيه أن الشعر منتحل لا يمثل الحياة الدينية أو العقلية أو الاجتماعية فيه. ولا يمكن نعتمد على هذا الشعر في تصور اللغة وخصائصها وأساليبها عند الجاهليين، محتجا بما يرويه الرواة من الخلاف بين لغة الشمال وبين لغة الجنوب. ويتناول ذكر إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام بكلام أقل ما يوصف به من أنه كُفر بكُتب ورسله يؤذي إيمان المؤمنين، ويفسد عقائد صغار الطلاب الذين ألقي عليهم فيقول مثلا: " للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها. ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين العرب واليهود من جهة، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى. "[1]. وواضح من كلام طه حسين مدى التأثير الإستشراقي المتحامل في فكر الرجل، وإعداده بوقا يردد كلاما طالما رددته كتابات الغربيين من أمثال مرجليوث وغيره.

أهاج هذا الكتاب الرأي العام، فثار الناس، وتوالت المقالات في نقد الكتاب ومهاجمة مؤلفه، وفضح نقوله عن الكتابات الغربية المغرضة، وقد شارك الشيخ الخضر حسين بتأليف كتاب لا في النقد بل في نقض كتاب الشعر الجاهلي، ولا شك

1) ـ محمد محمد حسين. الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. ط8، بيروت : مؤسسة الرسالة، 1986م، 298—299.

أن كلمة (نقض) أكثر حدة وشمولا من كلمة (نقد)، وكان أسلوب الكتاب أدنى إلى أسلوب الأزهر المتبع في الحواشي، والذي يتحرى الدقة في تتبع النص كلمة كلمة. فهو يتناول في نقده كتاب طه حسين صفحة صفحة، بل سطرا سطرا. فيقدم بين يدي نقده نصّ الفقرة أو الجملة التي سيتناولها بالمناقشة، مشيرا إلى رقم الصحيفة التي جاءت فيها، ثم يعقب بمناقشتها، مفيضا في ذلك ما بدا له، في صبر وحرص واستقصاء. وقد كان كتابه أطول ما ألف في الرد على طه حسين، إذ يقرب من أربعمائة صفحة. وقد ظهر في سنة(1345هـ / 1926-1927)[1]. وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة في أوساط الثقافية والعلمية وخاصة لدى علماء الأزهر، وبيّن غزارة علم الشيخ، وسعة اطلاعه في ميادين اللغة والأدب والدين.

في ميادين الإصلاح:

لم يرض الشيخ الخضر حسين أن يقضي حياته موظفا بدار الكتب، يتقاضى المرتب، ويتطلع للترقية في المنصب، ويعيش كيفما اتفق. . بل كانت نفسه تواقة تعشق المعالي، ولا ترضى بالخمول والسعي وراء مطالب العيش الرتيب. . نزل إلى الميدان يبارز التغريب في ميادين العمل الصحفي والجمعوي. . يلقي الدروس والمحاضرات في الأندية والجامع، ويحرر المقالات في الصحف والمجلات، وينشئ الجمعيات، ويشترك مع الغيورين على الإسلام في إصلاح أوضاع الأمة التي أنهكها الدخيل، واستولى عليها بقوته وفكره، فأحالها شبحا لا تصلح للحياة، ولا تصلح الحياة بها. !فنفخ الشيخ عبر مقالاته في طوايا الأمة العزة والإباء، راجيا منها البرء والشفاء. بما أوتي من سعة العلم، وقوة العارضة، وحسن البلاغ.

وهو في طريقه إلى تحقيق هدفه يبحث عن العلل التي لبست الأمم الإسلامية وقعدت بها في خمول، حتى ضربت عليها الدول الغربية بهذه السلطة الغاشمة

---

1) ـ المرجع نفسه. ص302.

فيقول: " وأنت إذا تدبرت هذه الأسباب وجدت السبب الحق منها يرجع إلى تهاون هذه الأمم بتعاليم الشريعة، ونكث أيديهم من المشروعات التي عهدت إليهم للقيام عليها، والعلة في ضعف هممهم وقلة إقبالهم على ما أرشد إليه القرآن ـ من وجوه الإصلاح ووسائل المنعة والعزة ـ إنما هي تقصيرهم في التواصي بالحق، وعدم استقامة زعمائهم على طريقة الدعوة والإرشاد "[1].

والشيخ حسين بحكم هدوء طبعه وتوازن مزاجه وقوة ثقافته عُدّ من " حزب المصلحين المعتدلين " كما وصفه صاحب المنار الشيخ رشيد رضا، والعلامة التونسي محمد الطاهر بن عاشور ". [2]والظاهر أن رحلته إلى ألمانيا وإقامته هناك وتعلمه اللغة الألمانية واطلاعه من خلالها على الثقافة الغربية فتحت فكره، وأنضجت أفكاره ووسعت أفقه، وأعطت لمنهج إصلاحه بعدا حضاريا وعالميا لم يعهده الكثير من شيوخ الأزهر في عصره.

كما اتجه الشيخ إلى تأسيس الجمعيات الإسلامية، وهو المنهج الذي اختاره أنصار الجامعة الإسلامية في التعريف بقضايا الأمة والدفاع عنها وجمع كلمتها تحت راية إسلامية واحدة [3].

فاشترك مع جماعة من الغيورين على الإسلام سنة (1346هـ= 1928م) في إنشاء جمعية الشبان المسلمين، ووضع لائحتها الأولى مع صديقه محب الدين الخطيب، وقامت الجمعية بنشر مبادئ الإسلام والدفاع عن قيمه الخالصة، ومحاربة الإلحاد العلمي. ولا تزال هذه الجمعية بفروعها المختلفة تؤدي بعضا من رسالتها القديمة.

1) ـ محمد الخضر حسين. الدعوة إلى الإصلاح. القاهرة : المطبعة السلفية، 1346هـ ص. 05.

2) ـ محمد مواعدة. الشيخ الخضر حسين.. مرجع سابق، ص209

3) ـ أنظر : عميراوي احميدة. الأمير خالد وخطاب الحركة الوطنية الجزائرية. ط1، الجزائر : دار الهدى، 2007م ص89-92.

وقد كان ميثاق الجمعية يبدأ بهذه الكلمات: "عليّ عهد الله وميثاقه، لأقومن بقدر طاقتي: أولاـ بإحياء هداية الإسلام في عقائده وآدابه وأوامره ونواهيه ولغته، ومقاومة تيار الإلحاد والإباحية، المهددين لهذه الهداية. . ."، وأصدرت الجمعية العدد الأول من مجلتها في جمادى الأول سنة 1348هـ /أكتوبر 1929م. وكتب يحيى الدرديري المقالة الافتتاحية، مشيرا فيها إلى ما ينشره دعاة الإلحاد من سموم باسم التجديد، داعيا إلى الرجوع للقرآن واتخاذه أساسا ومرشدا ومرجعا لنهضتها الخلقية التي بدونها لا تصلح أي نهضة أخرى، اجتماعية كانت أو اقتصادية أو غيرها، وجعله المرجع الأول والأخير في تمييز ما يصلح اقتباسه مما ينبغي تركه من المدنية الغربية الحديثة. . (1).

وأنشأ أيضا "جمعية الهداية الإسلامية" التي برز هيكلها إلى الوجود يوم 31رجب سنة 1346هـ / جانفي 1928م وكان نشاطها علميا أكثر منه اجتماعيا، ضمّت عددا من شيوخ الأزهر كالشيخ مصطفى المراغي، والأستاذ عبد الحليم النجار.. . وطائفة من شباب الأزهر المثقفين، وكوّن بها مكتبة كبيرة كانت مكتبته الخاصة نواة لها، وأصدر مجلة باسمها كانت تحمل الروائع من التفسير والتشريع واللغة والتاريخ.

وكانت تهدف هذه الجمعية إلى:

1 ـ السعي لتمتين الصلات بين الشعوب الإسلامية وتوثيق الروابط بينها والقضاء على الخلافات بين الفرق الإسلامية المختلفة.

2 ـ التعريف بحقائق الإسلام ونشرها بأسلوب يلائم روح العصر.

3 ـمقاومة الإلحاد والدعايات المناوئة للدين الإسلامي بطرق علمية.

4 ـ السعي لإصلاح شأن اللغة العربية وإحياء آدابها (2).



1) ـ محمد محمد حسين. الإتجاهات الوطنية.. . مرجع سابق. ص323م.

2) ـ مجلة الهداية الإسلامية. مج1، ج3.

وقد استعمل أعضاء الجمعية وسيلتين أساسيتين لنحقيق ذلك وهما:

1 ـ إلقاء المحاضرات والمسامرات في المساجد عقب صلاة الجمعة وفي بعض النوادي وخاصة التابعة لفروع جمعية "الهداية الإسلامية".

2 ـ إصدار مجلة تحمل اسم الجمعية يشارك في تحريرها نخبة من العلماء والفقهاء في الدين والأدب واللغة [1].

والجدير بالذكر أن مجلة الهداية الإسلامية لم تكن تهتم بنشر المقالات السياسية، بل كان التركيز فيها على الفكر والأخلاق والقيم، وهذه هي مداخل التغريب إلى قلب الأمة، يريد الشيخ بناء أسوار عالية حولها تحميها من كل غاشم كفور.

ومما يدل على سعة أفق الشيخ في الإصلاح فإن دور جمعية الهداية لم يقتصر على النشاط في مصر فقد بل أنشئت لها فروع في بلدان عربية مثل سوريا والعراق.

"وقد قضت مجلة الهداية الإسلامية عشر سنين متتالية، وهي تدعو إلى الخير والصلاح وتواصل البحث عن الحقائق الدينية والعلمية والأدبية، سالكة في جهادها سبيل الحكمة، لا تجمد عن حق، ولا يطيش لها قلم في باطل. . فكبر حجمها، كما أصبحت تحتوي على سبعة عشر بابا، يتناول فيها العلماء والفقهاء في اللغة والدين جميع القضايا التي تتصل بالإسلام والمسلمين مثل: تفسير وشرح الأحاديث النبوية الصحيحة ونشر الفتاوى والأحكام والقيام بمقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية ومدى تلاؤمهما ومكافحة بعض البدع والعادات السيئة. .

وكان لهذه الأعمال الجليلة نتائجها المثمرة إذ اهتم جميع المثقفين بهذه المجلة "الإسلامية العلمية الأدبية" فانتشرت في جميع الأوساط، وابتهج بها القراء المسلمون

---

1) ـ محمد مواعدة. الشيخ الخضر حسين.. مرجع سابق. ص89.

مما مكنها من القيام بدور كبير في توجيههم وإرشادهم، وفي إصلاح المجتمع الإسلامي بصورة عامة"[1].

ويبدو أن مجلة "الهداية الإسلامية" بعثت في نفوس العلماء والكتاب عزيمة لا تلين في مقاومة الفكر التغريبي الوافد الذي يتسلل إلى الثقافة الذاتية للأمة، ويعبث بمقدساتها، ويبث الشك والريب في ثوابتها، مما جعل السيد عبد العزيز بك محمد المستشار بمحكمة الاستئناف وعضو المجلس الأعلى للأزهر يقدم اقتراحا يقضي بإنشاء مجلة إسلامية، تساهم في تنوير المسلمين، وفضح مخططات أعدائهم، ومكافحة التيارات المنحرفة النابتة بين ظهرانيهم. . ولما أسندت مشيخة الأزهر إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر محمد الأحمدي الظواهري كان أول ما توجهت إليه عنايته مشروع هذه المجلة، فأخذ يدبر بجد وحكمة حتى لانت صعابه، وتهيأت بتأييد الله أسبابه. . . فقرر المجلس الأعلى بعد دراسة الموضوع تخصيص مبلغ مالي ينفق على المجلة، التي تحمل اسم "نور الإسلام" وأسندت رئاسة تحريرها إلى الشيخ محمد الخضر حسين. وذلك في (المحرم من عام 1349هـ= 1931م)، ودامت رئاسته لها ثلاثة أعوام.

ويشير الشيخ الخضر حسين في تقديمه العدد الأول من السنة الثالثة (المحرم 1351هـ /مايو1932م)إلى خطر الذين يتخفّون في زي المسلمين، ويتظاهرون بالدفاع عنه، من فاسدي العقيدة الذين ينشرون سمومهم باسم البحث العلمي، فيقول: "لاحظت المجلة أن من المُضلين من يكشف الغطاء عن سريرته، ويركب الصراحة في دعايته، ومنهم من يدس الباطل في عبارات يصبغها بما يشبه لون الحق فيكون أثره في نفوس بعض الأحداث أشد من أثر الداعي إلى الضلالة علانية. فلم تقصر المجلة جهادها على دفاع ما يصدع به المبطلون من آرائهم المردية، وعُنيت بنقد المقالات أو

1) ـ المرجع نفسه. 92-93.

المؤلفات التي تصدر تحت اسم البحث العلمي، أو الدعوة إلى التجديد، وهي تنطوي على روح لا يأتي على نفس غافلة إلا أطفأ نورها، وخالطها من الحيرة أو الجحود ما كان بعيدا منها. ."[1].

الخضر حسين. . . وجهالات دعاة التنوير: اصطدمت مجلة نور الإسلام منذ بداياتها بالكتابات المنحرفة عن الإسلام، والتيار الإلحادي القويّ آنذاك الذي كان ينادي بأن يتحكم العقل والعلم في مسيرة الحياة دون أيّ تدخّل من النصوص الشرعية، أو سيطرة للدين على شئون الحياة. فهاجم الشيخ محمد الخضر حسين دعاة العلمانية وأنصار فصل الدين عن الدولة بدعوى أن الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية سبب لتأخر المسلمين، وأرجع سبب محاربة هذا التيار للدين إلى الإعجاب غير المتعقّل بالغرب عبر وسائل الغزو الفكري في المجتمعات الإسلامية، ويرى أن الصورة في ذهن الشرقي عن أوروبا صورة مبالغ فيها نحو الكمال والرقي الإنساني بفضل الدعاية الثقافية والأدبية التي تقوم بها الأفلام السينمائية ومدارس الإرساليات الأجنبية، والنشرات التي تحمل طابع البحث العلمي.

وقد كتب ـ رحمه الله ـ مقالا في افتتاحية "نور الإسلام"[2]بعنوان: "ضلالة فصل الدين عن السياسة" رد فيه ردا علميا منصفا على مقال خرجت به إحدى المجلات تحت عنوان "داء الشرق ودواؤه" وفيه دعاية إلى فصل الدين عن السياسة" زعم فيه صاحبه أن سبب تأخر المسلمين عدم فصل الدين عن السياسة، ورد عليه فقرة فقرة موضحا زيف ما ورد فيه من أباطيل، وما نفخ فيه من نفاثات الفكر الغربي وفلسفته في الحكم والسياسة، مستمدا رده العلمي من آي القرآن، وسنة المصطفى، وسير السلف الصالحين.

---

1) ـ محمد محمد حسين. الإتجاهات الوطنية.. مرجع سابق، ص326.

2) ـ الجزء الخامس، مج2، جمادى الأولى، 1350هـ

وعندما قال صاحب المقال: "ولو رزق المسلمون رجالا ينظرون بعين الناقد البصير، من قبل قرنين، وفصلوا الدين عن السياسة لكان للإسلام اليوم من الشأن والسيادة في الممالك التي اغتصبتها الدول الأوروبية ما لا يقل عما للفاتيكان، وما كان خطر الاستيلاء عليهم عظيما..".

رد عليه الشيخ بقوله: " إن فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين، ولا يقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين، وليست هذه الجناية بأقل مما يعتدي به الأجنبي على الدين إذا جاس خلال الديار، وقد رأينا الذين فصلوا الدين عن السياسة علنا كيف صاروا أشد الناس عداوة لهداية القرآن، ورأينا كيف كان بعض المبتلين بالاستعمار الأجنبي أقرب إلى الحرية في الدين ممن أصيبوا بسلطانهم، ونحن على ثقة من أن الفئة التي ترتاح لمثل مقال الكاتب لو ملكت قوة لألغت محاكم يقضي فيها بأصول الإسلام، وقلبت معاهد تدرس فيها علوم شريعته الغراء إلى معاهد لغو ومجون، بل لم يجدوا في أنفسهم ما يتباطأ بهم عن التصرف في مساجد يذكر فيها اسم الله تصرف من لا يرجو لله وقارا.

يقول الكاتب: "لو فصلوا الدين عن السياسة ما كان خطر الاستيلاء الأجنبي عليهم عظيما"، يقول هذا كأن لا يدري أن السياسة الطاغية لا تهاب إلا حديدا أشد بأسا من حديدها ونارا أشد حرًّا من نارها، فليس من المعقول أن تردها عن قصدها سلطة دينية ليس في كنانتها سهم، ولا في كفّها حسام، أما قياسه حال السلطة الدينية الإسلامية - على فرض صحة إقامتها - بحال السلطة الكاثوليكية في احترام مؤسساتها وإطلاق يدها في عمل يرفع أهل ملتها فمغالطة أو غفلة عن الفرق بين سلطة دينية يجد فيها الاستعمار مؤازرة أو موافقة على أي حال، وسلطة دينية قد يكون في بعض أصولها منا لا يلائم طبيعة الاستعمار.

ولو ربط المسلمون سياستهم بالدين من قبل قرنين ربطا محكما لم تجد يد الغاصب للعبث بحقوقهم مدخلا، ولو أعلنوا فصل الدين عن السياسة لظلوا بغير دين، ولو وجد فيهم الغاصب من الفشل أكثر مما وجد، فليست مصيبة المسلمين في تركهم السياسة مربوطة بالدين كما زعم الكاتب، وإنما هي ذهولهم عن تعاليم دين لم يدع وسيلة من وسائل النجاة إلا وصفها، ولا قاعدة من قواعد العدل إلا رفعها".

بهذه الروح ظل الشيخ الخضر حسين يدافع عن حقائق الإسلام، ويرد أباطيل خصومه، بقلم صليب على الحق، ماض غير هياب. .

وخاضت المجلة العديد من المعارك الفكرية على الكثير من الجبهات، وعبر العديد من المحاور الفكرية، إلا أن الباحث الدكتور " جمال النجار " في دراسته القيّمة عن صحافة الإتجاه الإسلامي في مصر بين الحربين العالميتين يجمل القول عن أبرز إهتمامات مجلة نور الإسلام – كما يراها – على النحو التالي:

1 – " تفسير آيات من القرآن الكريم

2 – متابعة الحركة الفكرية العالمية وترجمة بعض ما يجيء في الصحف الأجنبية من مباحث علمية أو مقالات صحفية تتحدث عن الإسلام

3 – مهاجمة التبرج والتعري والسفور والإختلاط بين الجنسين، ومهاجمة الدعوة إلى تقليد المرأة المصرية للمرأة الأجنبية في كل أنماط الحياة،

4 – التصدي لحركة التبشير النصراني في العالم الإسلامي، وفضح خطط وتآمر المبشرين على المسلمين، ودحض الشبهات التي يثيرها المستشرقون ضد الإسلام.

5 – الدعوة إلى إدخال الدين في المدارس الحكومية ومحاربة المدارس الأجنبية والدفاع عن اللغة العربية.

والذي يتتبع افتتاحيات الأعداد الأولى من مجلة "نور الإسلام" التي كان يحررها الشيخ الخضر حسين بقلمه يتبن له مدى حرصه على صناعة أجيال جديدة تضبط

حركتها في الحياة على أوامر الدين ونواهيه وتشريعاته وقيمه، كما تتطلع إلى مستقبلها بكل عزيمة وإرادة مثل ما تتطلع إليه الأمم التي تأخذ بأسباب السعادة والتقدم والنهوض. وهذه بعض عناوين هذه المقالات:

ـ الانحراف عن الدين ـ علله ـ آثاره ـ دواؤه ـ[1] ـ العلماء والإصلاح [2]. ـ المدينة الفاضلة الإسلامية [3]. ـ أصول سعادة الأمة [4]. ـ صدق العزيمة أو قوة الإرادة [5]. ـ الغيرة على الحقائق والمصالح [6]. ـ كبر الهمة في العلم [7]. ـ الدهاء والاستقامة[8].

وفي معركته مع التغريب وأثاره البادية في أخلاق المجتمع وما طرأ عليها من الانحراف المبين، الذي أخذ يدب في نفوس الناشئة دبيب السم الناقع في جسم اللسيع، أرجع الشيخ سبب ذلك كله إلى زيغ في العقيدة، وهو بدوره مصدر الأخلاق المرذولة في كل حين، واعتبر أن الدعاية إلى القبائح لم تبلغ علانيتها ما بلغته في أيامه، واعتبر أن دعاة التنوير والتحرير والفن الجميل كثيرا ما يخادعون الشباب بهذه الشعارات الخادعة. وقد كتب رحمه الله مقالا استهل به مجلة "نور الإسلام"[9]، بعنوان: التعليم الديني في مدارس الحكومة": ولم تتفش ـ الرذيلة وزيغ العقيدة

1) ـ العدد 2 مج1، صفر 1349هـ.

2) ـ العدد3، مج1، ربيع الأول 1349هـ.

3) ـ العدد4، مج 1، ربيع الثاني 1349.

4) ـ العدد 5، مج1، جمادى الأولى 1349هـ.

5) ـ العدد6، مج1، جمادى الثانية 1349هـ.

6) ـ العدد7، مج1، رجب 1349هـ.

7) ـ العدد8، مج1، شعبان1349هـ.

8) ـ العدد9، مج1، رمضان 1349هـ.

9) ـ الجزء السادس، جمادى الآخرة، المجلد الثاني، مطبعة المعاهد الدينية الإسلامية، 1350هـ / 1931م، ص395-401.

وقبائح الأخلاق ـ لأن وسائل ساعدت على سريان وبائه لم توجد قبل، وأمهات هذه الوسائل ثلاثة أمور:

أحدها: هذه المدارس التي يفتحها الأجانب في أوطاننا باسم العلم، ويغفل بعض المسلمين عن سريرتها فتأخذهم بظاهرها، حتى يسلموا أطفالهم وهم على الفطرة إلى من يصبغ هذه الطر بسواد، وينزع منها روح الأدب الذي يجعلهم أولياء لعشرتهم نصحاء لأمتهم.

ثانيها: تهاون بعض الآباء بواجب أبنائهم، إذ يرسلون الناشئ إلى معاهد العلم بأوربا قبل أن يتلقن من علوم الدين ما يجعل عقيدته مطمئنة، فيلاقي في أثناء الدراسة هنالك أو في بعض المحادثات شبها لا يجد في نفسه من الحجج ما يدفعها، وإذا توازدت الشبه على الناشئ رانت على قلبه، وأصبح يبصر وجه الحق أسود قاتما، فيعود إلى وطنه وهو يحمل لأبويه عقيدة أنهما في ضلال قديم، وذلك جزاء من يستهين بهدى الله ولا يهمه إلا أن يكون لابنه رزق واسع، أو منصب في أحد الدواوين وجيه.

ثالثها: أن كثيرا من الحكومات الإسلامية ضعف فيها روح الاعتزاز بالدين الحنيف، فاستباح واضعوا برامج التعليم العام في مدارسها أن لا يضربوا لعلوم الدين بسهم، ومن يضرب لهم، فبسهم لا يغني من جهل، والتعليم الذي يهضم فيه جانب العلوم الدينية، لا يرجى منه تهيئة لنشء تتساقط عليهم الشبه فيطردونها أو توسوس إليهم الشياطين فيستعيذون منها".

لذلك حرص الشيخ الخضر حسين على الدعوة إلى تعميم التعليم الديني في جميع المراحل والتخصصات، لأنه يدرك أن هذا النوع من التعليم هو صمام الأمان الذي يحمي الأجيال الناشئة من حملات التغريب الهاجمة على عقلها وفكرها، فمنه تستمد المنهج، ومن خلاله تعرف الأحكام والتشريعات، وتترقى بتوجيهاته في

مدارج الرقي الخلقي المنشود، وما ينبغي أن يحرم طلاب العلوم الحديث من هذا كله، لتتوحد الرؤى والمنهل بين الطلاب جميعا، فيقول رحمه الله: " ولو كان التعليم الديني آخذا حقه في جميع مدارسنا، لم ير الناس ما يرونه فيها من التجافي بين أفراد نشئوا في مدارس دينية، وآخرين نشئوا في مدارس ليس للدين فيها نصيب، ولا منشأ لهذا التجافي إلا بُعد ما بين النشأتين، وإدخال العلوم الحديثة في المعاهد الدينية يذهب بجانب من هذا التجافي، فإذا عنيت وزارة المعارف بدراسة علوم الدين درسا جديا، اتحد أبناؤنا في أصل التربية، فيكون فضل المعاهد الدينية والمدارس الرسمية على الشرق في إخراجهما نشئا يتقارب شعورهم وتتدانى عواطفهم، فيتسابقون إلى أعباء الحياة بكواهل ملتئمة، ويرمون في وجوه العظائم عن قوس واحدة.

ومن مواقف الشيخ الخضر حسين في مجالدة التغريب ما كتبه في كتابه " القياس في اللغة "، وهو في تصوري عمل علمي يخدم اللغة ويرد غائلة المتغربين الذين يرون في اللغة العربية وقواعدها عائقا عن التطور والاندماج في أجواء الحضارة الحديثة وما تدعوا إليه من طمس الفوارق بين لغات الأجناس المختلفة، وقد أخذ بعضهم يؤلف في الكتب في اللهجات العامية، واقترحوا هذه اللهجات لغات تحل محل العربية الموحدة في تدوين العلوم والآداب، كما اقترحوا كتابتها بالحروف اللاتينية!.

وقد أدرك الشيخ رحمه الله خطر هذه الدعوات على التراث الإسلامي وعلى الأجيال التالية بين أبناء المسلمين وأبناء العرب خاصة. . فكلها ترمي إلى عزل هذه الأجيال عن تراثها بتغيير سم الخط تارة، وبتطوير اللغة تارة أخرى، وبتطوير مصطلح العلوم اللغوية من نحو وصرف وبلاغة تارة ثالثة.

" لقد عاش الشيخ الخضري حي الضمير، شديد الحساسية، فقد رأى الأجنبي يحاول أن يطمس نور الشريعة عن عيون تهيم بالإسلام، كما يبذل قوته الحاشدة لتشويه اللغة العربية والحكم عليها بالجمود والتقهقر، لينصرف الناس عن قرآنهم

المجيد وأحاديث نبيهم الكريم، ثم تنقطع صلاتهم بأصحاب الذخائر العلمية الرائعة من ورثة الأنبياء وهداة المصلحين.

لذلك أنشأ صحيفة (السعادة العظمى) على نمط (العروة الوثقى)، لتنشر محاسن الإسلام، وتفضح أساليب الاستعمار، وكانت خطة السيد منذ حمل لواء الدعوة في صباه إلى أن لقي الله في شيخوخته واضحة مفهومة، فهو يعتقد أن فساد الأمم الإسلامية يرجع في أصح أسبابه إلى انصراف المسلمين عن هدى الشريعة الإسلامية، ويرى أن السيطرة الأوروبية لم تملك زمام الأمور في الشرق إلا حين اعتصمت بالعلم واستضاءت بالعقل، وأن الشلل العقلي لم تتمهد وسائله المؤسفة وأسبابه القاتلة في ربوع الدين الحنيف إلا حين استطاع الدّخلاء أن يلبسوا الحق بالباطل، فيصِمُوا الإسلام بما هو براء منه من الجمود والتزمت والاستسلام، والأخذ بالخرافات والبدع والغيبيات المزعومة مما لم يأت به وحي سماوي، أو هدي نبوي.

ولذلك كانت مهمة (السعادة العظمى) شاقة خطيرة، إذ أخذت تحارب القوة والمال والنفوذ بعزم واثق، وجهد صابر أمين[1].

ومن يطالع روائع قلمه، وبخاصة ما كتبه في رسائل الإصلاح بأجزائه الثلاثة، يدرك مدى اعتزاز الشيخ الخضر بأمجاد أمته، وافتخاره بتراثها العريق، والشموخ بحضارتها الزاهرة، وكان ذلك أمرا لا بد منه في عصر تتبرج فيه الأفكار والفلسفات لتدل بأفضالها على الناس بحق أو بغير حق، وتُلحق بالشرق كل ضعف ونقيصة، وتنعت الغرب بجميل النعوت وكمال الأوصاف.

مشيخة الأزهر: نال الشيخ عضوية جماعة كبار العلماء برسالته القيمة القياس في اللغة العربية سنة (1370 هـ= 1950م)، ثم لم يلبث أن وقع عليه الاختيار شيخا

(1) ـ محمد رجب البيومي. النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين. ط1، دمشق : دار القلم، 1995م، 1/ 55.

للجامع الأزهر في (26 ذي الحجة 1371هـ= 16 سبتمبر 1952م)، وكان الاختيار مفاجئًا له فلم يكن يتوقعه أو ينتظره بعدما كبر في السن وضعفت صحته، لكن مشيئة الله أبت إلا أن تكرم أحد المناضلين في ميادين الإصلاح، حيث اعتلى أكبر منصب ديني في العالم الإسلامي.

وكان في ذهن الشيخ حين ولي المنصب الكبير وسائل لبعث النهضة في مؤسسة الأزهر، وبرامج للإصلاح، لكنه لم يتمكن من ذلك، ولم تساعده صحته على مغالبة العقبات، ثم لم يلبث أن قدم استقالته احتجاجًا على اندماج القضاء الشرعي في القضاء الأهلي، وكان من رأيه أن العكس هو الصحيح، فيجب اندماج القضاء الأهلي في القضاء الشرعي؛ لأن الشريعة الإسلامية ينبغي أن تكون المصدر الأساسي للتشريع، وكانت استقالته في (2 جمادى الأولى 1372هـ= 7 يناير 1954م)، ويذكر له في أثناء توليه مشيخة الأزهر قولته: "إن الأزهر أمانة في عنقي أسلمها حين أسلمها موفورة كاملة، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدي، فلا أقل من أن لا يحصل له نقص" وكان كثيرا ما يردد: "يكفيني كوب لبن وكسرة خبز وعلى الدنيا بعدها العفاء".

- تفرغ الشيخ بعدها للكتابة والتأليف والتحقيق فكتب في مجالات متعددة، وأسهم في الحركة الفكرية بنصيب وافر وترك لقراء العربية زادا ثريا من مؤلفاته، وقد جمع ابن أخيه الأستاذ الباحث علي الرضا الحسيني تراث عمه في مؤلفات بلغت الأربعة عشر كتابا، قدمها باقة للمكتبة العربية، وذخرا للأجيال، تسطر حياة وفكر وجهاد علم من أعلام النهضة الإسلامية المعاصرة.

وفاته

وبعد استقالة الشيخ الخضر حسين من المشيخة تفرغ للبحث والمحاضرة حتى لبى نداء ربه في مساء الأحد (13 من رجب 1377هـ = 28 من فبراير 1958م)، وصلي

عليه في الجامع الأزهر، ومشى في موكب جنازته علماء الأزهر وأعيان الأمة والمنتسبون إلى العلم حتى بلغ النعش (باب الخلق) والموكب متصل فيما بينه وبين الأزهر، ودفن بجوار صديقه أحمد تيمور باشا بوصية منه، ونعاه العلامة محمد علي النجار بقوله: "إن الشيخ اجتمع فيه من الفضائل ما لم يجتمع في غيره إلا في النّدْرَى، فقد كان عالما ضليعا بأحوال المجتمع ومراميه، لا يشذ عنه مقاصد الناس ومعاقد شئونهم، حفيظا على العروبة والدين، يردّ ما يوجه إليهما وما يصدر من الأفكار منابذًا لهما، قوي الحجة، حسن الجدال، عف اللسان والقلم ..."[1].

---

1 ـ أحمد تمام. الخضر حسين. ذكرى توليه مشيخة الأزهر. 26 ذي الحجة 1371هـ. موقع إسلام اون لاين، محب الدين الخطيب. شيخ الأزهر السابق السيد محمد الخضر حسين، مجلة الأزهر، الجزء الثامن، مج29، شعبان 1377هـ / فيفري 1958م، ص736.